عبدالجبار عباس

«معالم جديدة في أدبنا المعاصر»

- ١ -

بين نقادنا الشباب ، يتميز الناقد فاضل ثامر بأسهامات نشطة متجانسة الفكر والمنهج ، متباينة الموضوعات والمستويات ، فهذا الناقد الذكي الصبور ، التقدمي المثقف ، الجريء المتسامح ، النشط الكسول ، يواصل في كتابه : (معالم جديدة في أدبنا المعاصر) ما بدأه في دراسته (معالم جديدة في القصة العراقية) وبالمنهج النقدي ذاته المنبثق عن رؤية ماركسية مجسدة في تعاليم وتقاليد المدرسة الواقعية الاشتراكية في الادب والنقد ، فهو ناقد ذو هاجس أدبي سياسي أجتماعي حضاري يحتشد له بمتابعة طيبة لتأريخ وعيون ومشكلات الادب التقدمي والاشتراكي عالميا وعربيا ، تظاهره ثقافة عامة وأدبية ممتازة منفتحة ، بقدر نسبي لكن واع مستفيد ومتحفظ ، على عيون ومراحل الادب والنقد العالمي ، أوربيا وأمريكيا وعربيا .

للنقد الادبي عند فاضل ثامر وظيفة التوعية والرصيد والتعجيل بدفع البذور الجديدة رغم تعقيداتها في الطريق المشمسة دون بيروقراطية أو أستاذية ، فعلى قدر تعاظم أهمية وتأثير الادب في المسيرة السياسية والاجتماعية ، يتعاظم دور الناقد وتأثيره في تعزيز رؤيا ما ، أو رفض أخرى ، مستندا ، عبر منهج واضح متجانس متكرر أو معدل ، الى قاعدة ايديولوجية ثقافية تتخذ الادب موضوعا لهدف سياسي ، فتتجاهل قوانينه الخاصة حينا ، وتعترف بها متفهمة حينا اخر .. وينتهي ذلك الى مقررات مدرسية جاهزة تخدم الهدف والمرحلة مرة ، ونضج جمالي ينتهي الى (علم جمال ماركسي) مرة أخرى . وبين البدء الساذج والنهاية الصحيحة المقبولة ، يرسم الخط البياني لرحلة نقد الواقعية الاشتراكية متلازمة ومتفاعلة مع رحلة الفكر الماركسي ، ومسيرة المجتمع الاشتراكي الحضارية ، ومشكلات الثقافة الاشتراكية في كل مكان .

ولكن الماركسية ذاتها تؤكد دور (الظروف النوعية الخاصة) رغم وحدة المنطلق والفكر في صياغة اللامح القومية للادب والنقد . ان وحدة الهدف السياسي والقاعدة الايديولوجية لم تحل دون تجدد المشكلات الثقافية والنقدية ، وعلى نحو اكثر تعقيدا أحيانا ، بسبب العزلة الحضارية ، وظروف الكبت السياسي ، وطبيعة النشأة الجديدة الصعبة ، ومرحلية الاهداف وخصوصية المشكلات القديمة الموروثة دون حل أخير ترفضه الماركسية ذاتها ، والمشكلات الجديدة الناجمة عن اللقاء اللامتكافيء أو السهل أو الساذج مع الموروث القومي والادب المحلي أو العالمي . ان الحصيلة ـ الخليط هي ما طبع في الاغلب نتاج أدباء الواقعية الاشتراكية في العالم الثالث المستعبد والمتحرر والاشتراكي ، وما بدأت به الواقعية الاشتراكية في الادب العربي والعراقي المعاصر ، وما زالت تجاهد بنجاح أو تعثر لدفعها في طريق الانسجام والتجدد والانفتاح والابداع الذي يغني الاصول ، عبر محاولات مخلصة أو توفيقية مشدودة ، ولكن بخيرة اكبر ، الى الاساس ذاته ، والاهداف الايديولوجية والسياسية ذاتها . ان أية خطوة موفقة للامام ما تزال تكتنز الخطوات القديمة أو تتعثر بها هنا وهناك . ان مشكلة الواقعية الاشتراكية في الثقافة البرجوازية وثقافتنا هي مشكلة الموروث والمعاصرة ، تلك التي وفق النقد السوفيتي ، في ظل ثقافة مجتمع اشتراكي مستقر ، الى حلها عبر اسس علم الجمال الماركسي ، وبجهود (نقاد) كبار أساتذة منظرين ، وشباب أذكياء مخلصين . لكن نقد الواقعية الاشتراكية في أوروبا وبعض البلدان الاشتراكية الشرقية ، وبسبب اللانجانس الاجتماعي والثقافي وتجدد مشكلات الادب المعقدة قديمة وجديدة ، ما زال يستقبل الاجتهاد والمراجعة والاضافة ، مما بعد ارتدادا وانسلاخا مرة ، واغناء ثريا يسهم فيه ادباء ونقاد ماركسيون لا مذهبيون مرة أخرى . ان الواقعية الاشتراكية في روسيا لم تعد ملاحظات وتعاليم ماركس وانجلز ولينين ، تلك التي تختلط فيها اللقطة الذكية بالمراجعة النقدية بالحلم الرائد المتطلع صوب ما يمكن ان يحققه الادب والنقد ، والخاضعة لرؤيا فلسفية وهدف سياسي ، وانما هو يبدأ من القاعدة الواسعة في نقد غوركي فيبنى فوقها معالجات مستفيضة تغني المباديء الفلسفية الثابتة بأجتهادات موهوبة مستفيضة منفتحة تنكر (الطريقة الوحيدة الرديئة) . انه نقد بورسون وكراولين ويرميلوف ، وجيل من المخضرمين والشباب الماركسيين ... انه النقد الذي يبدأ من مقولة غوركي المرنة : الادب قلب العالم ، كل أفراحه واحزانه واحلامه وآماله وياسه وسخطه ، كل انفعالات الانسان اذ يواجه جمال الطبيعة ، كل مخاوفه اذ يواجه اسرار الطبيعة . انه نقد الواقعية الاشتراكية الرومانتيكية ، يستعيد ملاحظة انجلز عن الطريق المعقد للحركة الاقتصادية بوصفها حركة ضرورية عبر كثرة لا تعد من (الصدف) ويستثمرها لرسم الطريق الاكثر تعقيدا للأدب بوصفه ضرورة اكثر خصوصية وتعقيدا ، عبر كثرة لا تعد من (الصدف) المسعفة والمعوقة لانها صدف الظروف والموهبة في تفاعلهما الشائك . ان رحلة هذا التراث النقدي ليست فقط رحلة العودة الى نقد الديمقراطيين الروس ، لكنه ايضا رحلة الماركسية الخصبة في ظل المجتمع الاشتراكي النامي والمستقر ، من نقد ـ السلاح المكافح ، الى نقد الاضاءة الموضوعية والمراجعة التأنية المجتهدة ، حيث الادب ليس انعكاسا ثابتا ، لكنه نقد وحلم واقتحام . انها رحلة الاجتهاد الفلسفي الادبي المبدع من (التماثل الكئيب والامتثالية المقيتة) الى قانون التعدد والتنوع في أطار الفكر الواحد والمرحلة الواحدة ... ولكن لنقد الواقعية الاشتراكية عندنا شأن آخر . .

* * *

فتيار الواقعية الاشتراكية في ادبنا بدأ خليطا متجانسا فكريا ، غير متجانس منهجا او جذورا او معالجة ، يقتبس من كل مصدر ، ويذهب صوب اية جهة ، ليجعل الادب الثوري في خدمة متطلبات حركة ثورية تصارع اعداء قدامى وجددا ، هدفه سياسي ، وقاعدته حياة الجماهير ، وثقافته موزعة بين شذرات تقدمية من تراثنا ، ومن اعمال بليخانوف وطومسون وهاراب ، ثم عرف تراث النقد الروسي عبر غوركي ومترجمات (الشرق) و (الثقافة الوطنية) وسواهما .. وانفتح فيما بعد على مرحلة اكثر تقدما من النقد الواقعي الاشتراكي الاوروبي عبر أعمال كتاب يساريين اشتراكيين لبراليين (لويس عوض عمر فاخوري ، رئيف خوري ، سلامة موسى) ، ومباشرة من كتب : أرنولدكتل ، أيان وات ، رالف فوكس . . دون ان تعدل اعمال هؤلاء طبيعة المعالجات والمستويات ، لا تنظيرا ولا تطبيقا ، بسبب سيادة الضرورات السياسية المرحلية وثبات الهدف الواحد غير المتحقق . واتيح لكتاب يساريين عرب ان ينهلوا من ثقافة اوربا ما خطا بحركة نقد الواقعية الاشتراكية خطوة اكثر نضجا وانفتاحا تجسدت في محاولات قضايا الشكل والمضمون ومراجعة التأريخ العربي الادبي بنظرة ماركسية جديدة على الدراسة الاكاديمية (مقالات الدكتور صلاح خالص) .. وتجسدت في ملاحقة الاثار الادبية العربية قديمة ومعاصرة بسرعة تعليمية او تأن نقدي اكاديمي في مقالات عبد العظيم أنيس ، محمد امين العالم ، حسين مروة ، غائب طعمه فرمان ، عبد الملك نوري ، علي الشوك .. وكتاب مجلات الفكر اليساري المناضل .

وكان الرواد المجهولون المرتدون دون بدبل أنضج : (لويس عوض) والرواد المنسيون بسبب الكبت الفكري (محمد حسين الشبيبي) وبضعة كتاب ديمقراطيين يساريين ، قد مهدوا لكل هذا بمراجعة

الادب الانكليزي وفق فهم ماركس : (الادب الانجليزي الحديث : عوض) أو بأرساء الخطوط العامة للمبادىء النقدية الجديدة : (مقالات الشبيبي) أو بأضاءة عيون التراث الادبي الاوربي او العربي بضوء جديد .. وسرعان ما توالت جهود جيل من كتاب ونقاد وباحثين ماركسيين عرب وعراقيين لتصل بنقد الواقعية الى مرحلة النضج اللائق (اسهامات الدكتور صالح جواد الطعمه وغير واحد من النقاد العرب) ، تلك المرحلة التي حملت نقادا مخضرمين غير ماركسيين على تعديل ارائهم او تطويرها اللاحق ، وسمحت فيما بعد ـ بتأثير مباشر من الكبت السياسي ـ بمراجعة نقدية صارمة لتراث هذا التيار : (الواقعية الاشتراكية في النقد العربي المعاصر : غالي شكري) ثم مهدت لظهور جيل جديد من النقاد الشباب اكثر نضجا وخبرة وحرية و (صبرا) وديمقراطية : (محي الدين محمد ، سامي خشبة، صبري حافظ ، غالب هلسا) يواكب ادب الواقعية الاشتراكية في مرحلة نضجه واستقراره و (احزانه العربية) ويضيء الاثار الادبية بأضواء مراجعة اهدأ واسطع واعمق .. وانعكس تأثير ذلك كله في ادب ونقد ادباء ودارسين مخضرمين وجدد لا يلتزمون الفكر الماركسي ، لكنهم لا يتنكرون لانجازاته الادبية او النقدية ، بل ويستلهمون مبادئه النقدية الاساسية الصحيحة ، وقد باتت بدهيات لايمكن انكارها ، وينتفعون بأنجازاته النقدية الناضجة قديمة او جديدة ، ما دامت ادوات مسعفة في الرصد والتحليل والتقييم والتوجيه تستوي عندهم الانجازات الروسية والاوربية والعربية .. لقد باتت الواقعية الاشتراكية جزءا اساسا واضحا او متخفيا ، مقتبسا او معدلا ، لا من أدبنا الحديث ونقدنا الحديث فحسب ، بل ومن جهود الدارسيين التقدميين على اختلاف في مستوى الفهم والتمثل والمعرفة والانجاز ..

وهكذا عاد نقد الواقعية الاشتراكية في ادبنا العربي يستقبل تأثيرات وخبرات ومراجعات مختلفة ، من تراثه العالمي والعربي ومن تراث النقد والدراسة الادبية عالمية وعربية ، ليعود ـ بعفوية ـ مرة اخرى عودة النضج الى ينبوعه الاول الرحب : غوركي .. عبر رحلة شاقة من الكبت الفكري والمراجعة الذاتية والانفتاح الرحب او الضئيل على مصادر ثقافية جديدة مختلفة والانتفاع الذكي او البطيء من اعمال واقعيين اشتراكيين أوربيين اغنوا الاصول بأضافاتهم المقبولة او المنحرفة (برشت ، لوكاش ، فيشر ، غارودي ..) ولم يتحقق كل ذلك بمعزل عن مصاعب وتجارب النضال السياسي والمعارك الفكرية التي خاضتها الماركسية على اكثر من صعيد ، واسهم فيها كتاب وفنانون اوربيون معروفون ادعوا لانفسهم ماركسية جديدة اكثر (دقة) من الماركسية الكلاسيكية (سارتر ، كامي ...) واتاحت الترجمة للجميع ان يعرفوا جذور ومصادر وعثرات الواقعية الاشتراكية في الادب والنقد .. مما عجل ببدء مرحلة النضج الجديد ، ورسخ الايمان بفكرة ان (الامل الثوري صورة محركة قوية ، وبحرص الفن اندفاع حياة حار وبطولي ويسنده فينطلق بدوره الى غزو عالم افضل ويسلك بعزم طرقا جديدة) كما يقول هنري أرفون .

ولكن .. لنعد الى موضوع هذه المقالة ..

ـ ٢ ـ

وفاضل ثامر واحد من نقاد جيلنا الذي انفتح ـ في ظل مرحلة شاذة صعبة ـ على مشكلات وتجارب الواقع والادب ، وأسهم منذ البدء ، عبر تجارب خاصة عامة متباينة الجذور والاثار ، في صياغة ملامح نقدية جديدة منفتحة على انجازات الادب والنقد الحديث اوربيا وعربيا وعراقيا .. فلم تتح له الظروف اليومية الصعبة ان يعرف بدقة تراثنا النقدي ، القديم منه او القريب الرائد المتناثر في الكراريس والمجلات والجرائد التقدمية منذ العشرينات . ان اثار الادب الحديث مترجما او موضوعا ، لا التراث النقدي العربي والعالمي كانت في الاغلب (خلفية) النقد الشاب ، فلم يتح لاي من نقادنا الشباب ان ينتفع حتى بكتابات : أيوب ، محمد حسين الشبيبي ، نوري ، فرمان ، حسين مردان .. بل أفادوا من النقد الصحفي المعاصر الناضج الذي كان في متناول الايدي ، والمتنامي في ظل الصراع وجهود المؤسسات : نقد : الطاهر ، صلاح خالص ، نهاد التكرلي ، فؤاد التكرلي ، علي الشوك ، أمجد حسين ، صالح جواد الطعمه ... وأضافوا الى ذلك الاستفادة من المترجمات وعيون النقد العربي الحديث ، وعالجوا ـ بجهود فردية مخلصة متعثرة او موفقة ، مشكلات وظواهر ادبنا الحديث المتنامي منذ أواسط الستينات ، في ظل مرحلة سوداء متناقضة .. أتيح لهم فيما بعد ان يتجاوزوا (الانغماس اليومي) في ادبها ومشكلاتها ، فراجعوا تراث نقدنا التقدمي الحديث على تفاوت في المعرفة والتمثل والاستفادة .. وعمقوا من معرفتهم للتراث القديم .

ولم يكن الناقد الشاب فاضل ثامر بعيدا عن هذا الجو الردىء الملتبس والمتفتح البازغ ، بل كان في القلب من تجربة الستينات واقعا وادبا ، دون ان ينتهي به ذلك الى التخبط او الضلال .. واتاحت له معرفة الانكليزية خلل مرحلة الطلب الجامعي ان ينفرد عن نقاد جيلنا بأقتراب واع من عيون النقد العالمي الحديث تأثرا او اقتباسا او استفادة ، فتضافر ذلك مع التجربة الخاصة العامة في صياغة ملامح نزعة نقدية اكاديمية مستندة الى تراث الواقعية الاشتراكية الحديثة عالمية وعربية وعراقية ..

ويكاد الناقد فاضل ثامر يتميز عن نقاد هذا الجيل ، وعن القلة القليلة من نقاد الواقعية الاشتراكية الشباب ، بصدق تمثله لتراثه النقدي المتطور والمنسجم والمتناقض ، وبصدق اسهاماته النقدية في معالجة الاثار الادبية العالمية والعربية والعراقية . فالعثرات في نقده عفوية ، هي عثرات تراثه ، وعثرات التوظيف المخلص للنقد في خدمة أدب مرحلة صعبة صاعدة ، وهي عثرات الصراع الخاص بين أحلام الناقد ومطالب الفكر ، أضافة الى العثرات المعهودة المنبثقة عن اللاانسجام بين الادب ، موضوع النقد ، وبين المعالجات النقدية .

ان الدور الايدلوجي السياسي المرحلي للادب والنقد ، والمجسد في فاعلية منهج واضح منسجم متكرر او متطور احيانا منبثق من قاعدة ايديولوجية ثقافية تتخذ الادب موضوعا لهدف لا أدبي ، دون ان تغفل شروط الادب وقوانينه ومشكلاته الخاصة ، وتغليب الحوار الفكري على (الجمالية) هو ما يميز نقد فاضل ثامر ويؤشر امتيازاته وسلبياته.

واسهامات فاضل ثامر النقدية نشطة متجانسة الفكر والمنهج غالبا .. متباينة الموضوعات والمستويات ، بسبب سعة الثقافة وامتداد الهدف عبر اثار لا متجانسة ، وبسبب تعاقب زاويتي الحب والرفض في الرؤية النقدية .

في (الباب الاول الخاص بنقد القصة العراقية الجديدة) نرى القصة عنده أداة ادبية اجتماعية فاعلة تأثرت بظروف المرحلة وينبغي أن تؤثر في مسارها لذا يحق للناقد ويجب عليه ان يحكمها بمنظور أيدلوجي واضح الطريق والغاية وازاء الاثار الناضجة المعبرة عن انشغال بشرط حضاري او هاجس فلسفي ، لابد للنقد الادبي من ان يكون حوارا فكريا لا يغفل دور الشروط الجمالية وعلاقتها بالرؤية (أزمة البطل في : الشحاذ ـ زوربا : صراع النموذجين الحسي والتجريدي) ، فعلى قدر تعاظم اهمية وتأثر دور الادب العظيم ، أدب الاعلام خاصة ، في المسيرة السياسية الاجتماعية ، وتغلب الضرورة الفكرية بعمد او بحماس عفوي ، في تعزيز رؤيا ما ، او رفض أخرى . ان الاكتشاف النقدي موظف لخدمة هدف الناقد الايديولوجي الادبي ، ويمسي الاثر موضوعا ، والنقد اداة .. وتغيير الواقع هدفا .

ولا يبتعد الباب الثاني (واقع الشعر الستيني) عن الباب الاول معالجة ومستوى وغرضا ، فالقصة الستينية والشعر الستيني نتاج مرحلة واحدة ، وجهد جيل ادبي متحمس مجرب مجدد متخبط متعثر متمرد ملتزم ، فلابد من تصفية تناقضاته الادبية في رؤية منسجمة موجهة تغفل اغلب السلبيات فتحيلها ريادة او جرأة او تجديدا ، وتجعل من شرط الوعي والاخلاص والانتماء الادبي امتيازا ومأثرة ، وتحيل اثار الضغوط السياسية المفروضة (رؤيا جديدة طرحها القاص)، والاندفاعة العمياء لدى اغلب القصاصين (اشكالا تكنيكية وتعبيرية استخدمها بجرأة وشجاعة) ، والتعبير اليومي السهل عن الاحزان اليومية الصغيرة ، احزان الضياع والحلم والخيبة (رؤيا فلسفية

شاملة) ، واللاتواصل بين الاجيال تطورا مدهشا جريئا ..

ان فاضلا في حالي الانكار والاعجاب ، ناقد متحمس منكر او منبهر، تقوده وحدة المنطلق والهدف وتشابه هموم المرحلة في معظم اعمال أدبائنا الشباب ، وبتأثير وحدة المنهج المنطوي على اخطاء موروثة وجديدة ، الى اغفال المراجعة الذاتية ، وتغليب الرؤية الوحيدة المفضية الى نقد الطريقة الوحيدة المستهلكة ، والنتائج المعدة سلفا دون تصميم مسبق . ان الطريق الوحيد المفتوح على الهدف الوحيد الكبير يحكم المعالجة النقدية ويكاد ينحرف بها دون قصد الى التزمت او الضبابية .. يستوي في ذلك نقده لقصص جمعه اللامي وعبد الاله عبد الرزاق ورواية (زوربا) وقصص موسى كريدي وغازي العبادي ، ونقده لشعر عبدالصبور واليوت وسامي مهدي وسلمان الجبوري . ان العثرات تتفجر في غضب هادىء او اعجاب ذكي ، حتى لو التقط الغضب مزية فنية هنا ، والاعجاب منقصة هناك : (نقد اعمال : فاضل العزاوي ، عائد خصباك ، موسى كريدي ، حسب الشيخ جعفر) .. وينتهي ذلك الى لغة نقدية جميلة رشيقة مجازية حين يفضي العشق المستغرق في رؤيا الشاعر حسب الشيخ جعفر وحسن تفهم مراحلها الادبية الى انجاز نقدي بكر ... لكنه ينحرف ـ في ظل الاسهامة المرحلية المنغمسة دون صمود في اخطاء المرحلة ـ الى لغة نقدية شائعة مستعارة دون ضرورة من قاموس النقد الفرنسي الحديث ، نقد البيرس في (التيارات الادبية في القرن العشرين) ، فنصدم بمجاراة سهلة واستخدام خاطىء لمصطلحات مثل : رؤيوية ، تشكيلية .. حسية دنيوية ، ميتافيزيقية صوفيه ، الرؤية التعبيرية ، الابعاد والمسافات المعمارية والتشريحية ، تشكيل معماري ... (ص ١٨٣ ـ ١٩٤) .. يمهد لهذا المزلق الخطر عمومية المسح النقدي ، وقسر التصنيف ، وانبهار بمعاصرة صادقة او كاذبة ، وحماس نفسي لفظي أيدلوجي نقدي ، وشغف بالمقارنة وتقصي جذور شعرية لم يحسن الشعراء فهمها .. وازاء هذا المزلق لابد من مكابدة الحماس ، والسيطرة على زمام رؤيا نقدية متبلورة ، كي نظفر بالدقة المطلقة ، دقة علم الادب في اللغة التي بدونها يضيع كل مكسب ، ويهدم كل بناء، وتغيب كل فائدة .. ان فاضلا اذ يخلط ـ بحماس ـ بين دلالات المصطلحات ، او يجتلبها دون ضرورة نقدية ، هو فاضل الذي عرف عيون النقد العالمي الحديث ، وادرك ، كما لم يفعل ناقد شاب عندنا ، الفروق الدقيقة بين مصطلحات نقد الواقعية الاشتراكية : الطريقة ، المنهج ، النظرة ، المدرسة .. الخ .

يملك فاضل ثامر ـ اذ يتحرر نقده من ضرورات المرحلة وتدفق الحماس المعيب ـ حرية اكبر وشجاعة في التفكير النقدي تغني القناعات الاساسية وتمنحها نكهة شخصية تومىء الى امكانات اصالة نقدية متكتمة وواضحة ، على استحياء وقلة ، ويملك طاقة الناقد المتمرس المخلص : أستخلاص القوانين الادبية او تأكيدها عبر المعاناة الشخصية . انه في نقده لشعر حسب الشيخ جعفر وفدوى طوقان وصلاح عبد الصبور وفوزي كريم ، ناقد انطباعي واقعي معاصر مثقف يلتقي بانضج ممارسات نقادنا المعروفين .. يجمع بين الشرح والتحليل والتقييم السديد . انه ناقد عاشق او متفهم لا يسمح للتوجيه في النقد ان يقصيه عن اسرار الرؤيا الشعرية وخط التطور الداخلي للتجربة الشعرية ، وبخاصة اذا كانت كرؤيا حسب الشيخ جعفر رؤيا ناضجة معاصرة وحضارية ومنتمية بطريقتها المتفردة ، او كرؤيا فدوى طوقان متطورة من الغنائية الرومانسية الى شعر المقاومة ، او كرؤيا فوزي كريم تبدأ من الاشياء اليومية الى عالم محايد محبط منحاز حالم ، او كرؤيا عبدالصبور ثرية بهاجس غنائي درامي انساني موزع بين الغنائية والدراما وجامع بينهما في مسرح شعري يضع الناقد المثقف يده على تأثره بمسرح اليوت .. فهو هنا ناقد موجه ، لكنه في الوقت ذاته ناقد اكاديمي مدقق لا يعبر الحيثيات الى النتائج ، بل يحتشد بتفاصيل وادوات اكاديمية ويحسن أغناء عمله بها .. بينما كان في دراسته لقصص الستينات يخلط ، بتأثير المطلب الايدلوجي ، والفهم القاصر الموروث لعلاقة الادب بالواقع ، بين الفكر والانجاز الفني ، بالرغم من محاولته الصادقة ـ لكن التوفيقية الملفقة ـ أن ينسق بينهما عبر التشجيع والتحفظ ، الفهم والانكار ، وعبر مقولة وحدة الشكل والمضمون .. وهي مقولة لم تعد ذات جدوى في النقد الحديث ، لان العمل الادبي الناضج ليس شكلا ومضمونا متحدين ، فهذا تكرار لمقولة اللفظ والمعنى القديمة الرثة .. لكن العمل (حقيقة فنية داخلية مركبة منسجمة عبر جدل حي) ، ثمرة انصهار وتفاعل سيكلوجي جمالي بين عدة عوامل موضوعية وذاتية ، وينتهي هذا التفاعل ـ بسر الموهبة الخاصة الناضجة ـ الى بناء لغوي ذي جمال داخلي خاص وقوانين متفردة تعيد تشكيل حقيقة ما فتمنحها وجودا جديدا ، وجودا ادبيا موضوعيا .. واذا يتألق فاضل ثامر في دراسته لشعر حسب الشيخ جعفر يقدم دليلا اخر على ان الافكار الايدلوجية في النقد تعجز عن ان تكون بديلا عن الحس الجمالي المرهف القادر على التقاط سر العمل او قانونه ، لانه حس مثقف مشبع بفهم شعري صادق لمسار حركة التاريخ وحركة الجمال في تواصلهما الذي يصنع تاريخ الادب العظيم ..

وحين يلجأ الناقد في معالجته لادب عبد الصبور وفدوى طوقان ، ودراسته لفن الحكاية الشعرية الى اسلوب المقارنات والاقتباسات والتداعيات المنهجية المنضبطة بخطة اكاديمية موسعة يؤكد انه في اخلاصه لهدف التوجيه والتعليم ، وبتأثير الماضي الجامعي وشيوع النزعة الاكاديمية لدى اعلام النقد في اثارهم الكبيرة ، لا يتردد ، من اجل ان يومىء الى مستقبل يقترحه للحكاية الشعرية مثلا ، ان يرث محاسن الاكاديمية النقدية التراثية التاريخية ، وليدل احيانا ـ اذ يقتبس دون طائل ـ على عناصر ثقافية ادبية لم تهضم بعد ، لذا تنطرح مع مختلف الاعمال المنقودة بيسر لا مبرر له .. يسر كنا نجهل ضلاله يوم كنا ما نزال فتيانا نهمي القراءة قريبي العهد ببحوث الجامعة ومحاذيرها المشروعة وشروطها الاكثر مشروعية ..

يؤكد فاضل ثامر في افضل مقالاته ان نقد الواقعية الاشتراكية الذي يمثل انصع صورة في نقد القصة والرواية ، ليس نقد الطريقة الواحدة ، ولا حتى المنهج الثابت ، فالاولى مستكرهة ذميمة في ارقى الاوساط النقدية السوفيتية ذاتها ، بله العالمية الحديثة .. والمنهج المنبثق عن فلسفة متجانسة غنية يمكن ، بجهد الناقد الذكي المخلص المتمرس ، ان يعدل ويطور لصالح (رؤيا نقدية متجانسة) ، فلا ينتهي الى الجمود ، ولا يسقط اذ يساعد فهمه واستغلاله ، في التخبط والبدائية .. فالرؤيا النقدية ـ وان لم تستند الى خلفية فكرية موحدة ـ تجد ضرورة مسعفة ان تستفيد من اكثر من منهج دون ان تنحرف الى الفوضى . ان المهم ـ يقول بورسوف ـ هو (الحقيقة الفنية) لا الافكار .. وتقدم الاثار النقدية الاشتراكية الجيدة الدليل تلو الاخر على ان الرؤيا النقدية الحقة هي التي تلتقط هذه الحقيقة وتضيفها دون عسف الى تراث الادب والنقد ، فلا تبدأ بتقديم نظري صحيح لتصل الى تحفظ فني يخفي تحفظا فكريا عبر تطبيق قاصر ملتو مقنع بالفطنة النقدية ، ولا تبدأ كما في دراسة (زوربا) بالثناء على المجد الفني لتنتهي عبر التحليل الفكري او الجمالي الى ادانة الرؤيا في العمل بدلا من ان ترى فيه تفسيرا ادبيا لموضوع انساني .

ان الجدل في حركة التاريخ والواقع والطبيعة والتراث ينصهر في النقد المبدع ـ وان لم يحدد بهدف او منهج ـ بفهم دقيق حساس لحقيقة الجدل في الابداع الفني .. ان الخبرة الجمالية لا تعود تعني شيئا في النقد الادبي حين نكون ذيلا لجعل المضمون او صحة الرؤية او وضوح الفكر فيصلا وهدفا ، كما ان الحماس الفني ، وأن يكن صادقا ، مهلكة في النقد حين يفضي الى الخلط والوهم والعمى والاجتلاب والحشر والاقتسار ..

وما زال الناقد فاضل تامر موزعا متباينا في كتابه ، ليشير الى تجدد مساويء الواقعية الاشتراكية لاكثر من سبب . ان الجرأة والثقافة والاكاديمية ونبل الغاية ليست شيئا اذ تباعد بين الناقد وبين الاصغاء الى اسرار وقوانين الادب ، واذ تبقى المعالجات النقدية متباينة بتغير الاهداف والزوايا. ففاضل اذ يدين العمل منذ البدء ليجعل التحليل المستفيض دعما قانونيا للحكم : (أزمة البطل في الشحاذ ، زوربا) ، واذ يدين العمل على مستوى الفشل الفني واللاأصالة المفضية الى كثرة أو رداءة التاثر ... فهو في فصله عن شعر حسب

الشيخ جعفر وريث وافعية انطباعية شعرية تحيل تناقض الشعر انسجاما ، والفوضى وحدة داخلية ، وما هو حلمي أسطوري الى واقعي تاريخي ، وتستثمر ما تحتاجه من انجازات الادب والنقد لصالحها دون قسر أو تعالم لامتلاك اكبر رقعة من الحقيقة الادبية .. لكنه ـ بعد هذه الرحلة الخصبة ، رحلة تراثه النقدي وتجربته معا يعود الى تغليب الهدف والفكرة المسبقة ، لينقذ كاتبا مثل نجيب محفوظ في (حب تحت المطر ، الكرنك) من تهمة الصورة القاتمة وهوة اليأس والسقوط السياسي والفني . انه في مقالته الاخير (الاديب المعاصر ـ تشرين اول ١٩٧٤) قاض منحاز يبدأ بمناقشة التكنيك الكاشف عن تناقض الشخصيات عبر الاقنعة والتفاصيل المعقدة لينتهي الى ان الروايتين تكتفان قانونا جدليا تأريخيا لم يكتشفه في الروايتين ناقد آخر : انهيار جيل الهزيمة وولادة جيل ثوري جديد بين الانقاض .. فالروايتان في وهم الناقد المشفق من فساد رؤيا نجيب السياسية تكشفان عن رؤية فكرية عمادها فضح عوامل الهزيمة ونتائجها لنقف مع المؤلف أمام قوى المستقبل النامية بثقة وتفاؤل . . هكذا يعود الخطأ القاتل بأستسلام الناقد لضرورة لا ادبية ، فيوجه الممارسة النقدية توجيها خاطئا مسرفا لينقذ الكاتب التقدمي المعروف ، وربما دون قصد مسبق ، من الاتهام والسقوط والتخلي ، حتى لو تم ذلك بذبح الاعمال الادبية وقتل الحقيقة التأريخية والفنية . .

ومع ذلك ، يبقى في افضل فصول : (معالم جديدة في ادبنا المعاصر) ما يؤكد ان فاضل ثامر ، لو واجه عمله بأرادة متحررة ـ لا تضحي بالتزاماتها الفكرية ولا بقوانين الادب ، قادر على ان يؤدي في نقدنا الادبي الحديث ما لا يؤديه ناقد آخر في اتجاه الواقعية الاشتراكية الحديثة ، فهو ناقد صادق مخلص مثقف متمرس توفرت له عناصر الابداع النقدي ، ولا ينقصه الا ان يكون ابدا اكثر حرصا على الاقتراب من اسرار الادب وقوانينه ، اي اكثر قربا من المعاصرة في النقد ، ونقد الواقعية الاشتراكية ذاته ، في تراثه الكلاسيكي وانجازاته الضخمة الجديدة . .

بغداد

صدر حديثا

نجران تحت الصفر

رواية بقلم

يحيى يخلف

تتحدث هذه الرواية عن انتصار انسان القرن العشرين المكبل بقيود القرون الوسطى .. ان نجران ، تلك البلدة العربية البعيدة ، المنسية في جنوب الجزيرة العربية ، كانت قاعدة للثورة المضادة ، ابان الصراع العنيف في اليمن بين قوى التحرر والثورة من جهة ، وبين قوات الامام التي تدعمها الرجعية والامبريالية من جهة أخرى .

ولكنها في الوقت نفسه ، كانت ارضا للتحدي البطولي والمخاض الاجتماعي والنزوع الى الحضارة : ففي عصر النفط ، يعرف العمال البسطاء كيف يصمدون ، ويعرف العبيد كيف ينتزعون الحرية ، وتعرف السواعد التي تجري في عروقها الدماء الساخنة كيف تنتصر على الجلادين والجواسيس والمرتزقة .

ولقد اتيح للكاتب الفلسطيني يحيى يخلف ان يعيش جزءا من تجربة تلك المرحلة ، وهو في هذه الرواية يدلي بشهادته .

منشورات دار الآداب ـ واتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين